مادّة: الأدب الصوفي الجزائري **السنة الثالثة ليسانس/ أدب جزائري**

الدرس رقم02 **أستاذ المادّة: بن زياني**

مرجعيات الأدب الصوفي الجزائري

يرى أهل الاختصاص أن أدب الزهد إلى غاية نهاية النصف الأول من القرن (6هـ-12م) لم يكن يرقى في نصوصه المنظومة والنثرية إلى مستوى يسمح بإدراجه ضمن أدب التصوف إلا بعد أن شهد المغرب الأوسط خلال النصف الثاني من نفس القرن دخول مجموعة من المصنفات الصوفية المشرقية والأندلسية والمغربية في فترات زمنية يصعب ضبطها ضبطا دقيقا مع فقهاء والعلماء العائدين من المشرق أو بواسطة صوفية المغربين الأدنى والأقصى الذين استقر بهم المقام بحواضر المغرب الأوسط' أو مع الأندلسيين المهاجرين إلى بجاية وتلمسان بقصد تجديد أنفاس الرحلة ذهابا وإيابا أو بغرض الاستقرار وكان لهؤلاء دور بارز في شرح وتبسيط محتوياتها لجمهور الطلبة والمهتمين .

1) المصنفات المشرقية: ومن بين أكثر المصادر المشرقية والمغربية والأندلسية التي نهل منها أدب التصوف أفكاره، هو كتاب(الرعاية لحقوق الله) للحارث بن أسد المحاسبي (ت 243هـ-858م) وقوت القلوب لأبي طالب المكي (ت 3هـ-9م) والرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري (ت 465هـ-1072م) و(إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي (ت 505هـ-1111م) وهي مصنفات في التصوف السني تطرح الخطوات التي يقطعها السالك بواسطة المجاهدات للوصول إلى النجاة من عقاب الله كما حددها المحاسبي' وإلى تقويم النفس وتهذيبها عن طريق الإرادة والرياضة لبلوغ بها مرتبة الأنبياء والصديقين والصلحاء' ثم النزوع إلى الكشف عن عالم الغيب وهي مرحلة فراغ القلب عما سوى الله كما تبينها الرسالة القشيرية وإحياء علوم الدين'

وقد أصبحت هذه المصنفات منذ النصف الثاني من القرن (5هـ-11م) متداولة بين القراء في حلقات الدرس بتلمسان وبجاية وقلعة بني حماد حيث كان الصوفي عبد السلام التونسي (ت 486هـ-1093م) يدرس برابطته بتلمسان (رعاية) المحاسبي، ويدعو في أوائل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، إلى قراءة "إحياء علوم الدين" وقد أفلح في تحسيس الوسط الفكري في تلمسان بأهمية "الإحياء" وقيمة أفكاره الصوفية وبهذه الطريقة شرع التلمسانيون في نسخ (الإحياء) وحفظه'

وبقلعة بن حماد انتصب الصوفي أبو الفضل ابن النحوي (513هـ-1119م) مدرسا للإحياء واستنسخه

في ثلاثين جزءا فإذا دخل شهر رمضان قرأ كل يوم جزءا' ولشدة تمسكه بالإحياء نقل عنه قوله: (وددت أني لم أنظر في عمري سواه)واستطاع أن يؤلف من حوله كوكبة من القلعيين ينهجون أفكاره الغزالية' وكذلك في بجاية التي حل بها أبو مدين شعيب (ت 594هـ-1189م) منذ(559هـ-1163م) ومكث بها خمسة عشرة عاما جعل من كتاب (إحياء علوم الدين) أفضل كتب التذكير لديه وأكثرها قراءة في مجلس تذكيره كما درس الرسالة القشيرية وأطلع الطلبة على (رعاية) المحاسبي.

أما معاصره أبو علي الحسن بن علي المسيلي المتوفى في أواخر القرن (6هـ-12م) فقد نسج على منوال (الإحياء) كتاب (التفكر فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات) أحاط فيه بالفقه والتصوف حتى لقب بأبي حامد الصغير وأضحى الكتاب متداولا بين البجائيين وغطى بشهرته شهرة (الإحياء) آنذاك.

في أواخر القرن (5هـ-11م) وأوائل القرن (6هـ-12م) هاجر من تلمسان و الجزائر ومن بني مزغنة كوكبة من الأطر الزهدية إلى الأندلس للتمدرس عن كبار صوفيتها إذ قصد كل من المحدث يوسف بن علي بن جعفر التلمساني والفقيه حجاج بن يوسف الجزائري أشبيلية. وأخذوا بها (الإحياء) عن القاضي أبي بكر بن العربي (ت 543هـ-1148م)، بينما قصد كل من الفقيه أبي الحسن بن أبي القنون (ت 557هـ-1162م) والزاهد أبي موسى عيسى بن حماد الأوربي ويعقوب بن حمود التلمساني مرسية. وأخذوا بها عن القاضي أبي علي الصدفي (توفي في النصف الأول من القرن 6هـ)، وأخذوا عنه (آداب الصحبة للسلمي) و(رياض المتعلمين) و(حلية الأولياء) لأبي النعيم الأصفهاني' ولما عادوا إلى مواطنهم عملوا على نشرها بين الطلبة والمريدين.

2) المصنفات المغربية والأندلسية: شكلت مصنفات المغرب الأقصى أهمية كبيرة في بلورة أفكار الأدب الصوفي وصنع مخياله، من خلال مؤلفات أبي محمد صالح الماجري (ت 631هـ-1234م) شيخ رباط أسفي التي دخلت بجاية وقلعة بني حماد مع الصوفي أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم السجلماسي توفي في النصف الثاني من القرن (7هـ-13م (وهي كتاب (بداية الهداية) و(تلقين المريد) (وشرح المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى لأبي حامد الغزالي وشرح الرسالة القشيرية) فضلا عن كتاب (قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء الصديقين) لعبد الرحمان بن يوسف البجائي في النصف الثاني من القرن (6هـ-12م) وإسهامات أبي زكريا يحيى بن محجوبة القريشي السطيفي (ت 673هـ-1278م) من خلال كتابه شرح أسماء الله الحسنى.

كما شكلت حركة هجرة صوفية الأندلس إلى المغرب الأوسط على مدار القرنين (6 و7هـ-12 و13م) عاملا

رئيسيا أدى إلى دخول المصنفات الصوفية ورواجها. فألف عبد الحق الأشبيلي (ت 581هـ-1185م) ببجاية مجموعة من المؤلفات الزهدية أبرزها كتاب (الزهد) وكتاب (الصلاة والتهجد) وكتاب (أشعار زهدية في أمور الآخرة) فضلا على كتابه (العاقبة في ذكر الموت)، وقد ضلت مؤلفات عبد الحق الأشبيلي خاصة كتابه العاقبة مصدرا زهديا نهل منه الصوفية واعتمدوه مرجعا في كتاباتهم حيث اعتمد عليه عبد الرحمان الثعالبي (ت 875هـ-1475م) في تأليف كتابه (العلوم الفاخرة).

ولما اضطربت أوضاع الأندلس بفعل نشاط الثوار الطامعين في الحكم وتعاظم نشاط حركة الاسترداد المسيحي التي بلغت أوجها عام (633هـ-1236م) بشرق الأندلس .تقاطر أعلام الأندلس فرارا نحو بجاية وتلمسان وحملوا معهم مصنفات التصوف فادخل أبو الحسن عبيد الله النفزي الشاطبي 642)هـ-1224م) مختصره على حلية الأولياء لأبي النعيم وعمل على تلقينه للطلبة. وكذلك درس ابن السراج الأشبيلي (ت 675هـ-1277م) قوت القلوب لأبي طالب المكي والإرشاد لأبي المعالي وبسط مضامينهما للطلبة' فضلا على تلقين أبي العباس أحمد بن أحمد المالقي (ت 660هـ-1261م) للطلبة كتاب الإرشادات والتنبيهات لابن سينا هذا الكتاب الذي يتضمن فلسفة التصوف الإشراقي أصبح له قراء ببجاية.

ناهيك عن تلقين أبي العباس أحمد بن عجلان القيسي (ت 675هـ-1277م) لجمهور العامة طرق ومناهج الصوفية والصالحين' وتدريس أبي عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي (ت 699هـ-1300م) لعدد من المصنفات المشرقية والمغربية مثل كتاب (فضل قيام الليل) و(فضل تلاوة القرآن) للإمام بكر الأجري' واقتصار أبي جعفر أحمد بن محمد المكتب في القرن (7هـ) على تدريس قوت القلوب' وإلى جانب هذا الدور قاموا بإدخال إنتاجهم الصوفي إلى بجاية وتلمسان، ونجحوا في تشكيل اتجاهات صوفية لم تكن معروفة بالمرة في المغرب الأوسط فبالنسبة للصوفي محي الدين بن عربي (ت 638هـ-1240م) الذي يصمم بعض الباحثين إدراج مؤلفاته ضمن قائمة المصنفات التي أدت دورا بارزا في نشأة اتجاه وحدة الوجود في المغرب الأوسط من منطلق تأليفه لكتاب (مواقع النجوم) بالمرية قبل دخوله بجاية' ومن زاوية تعليق فقيه بجاية أبو العباس أحمد الغبريني عليها في قوله: (وفيها ما فيها فإن قيظ الله من يسامح ويسهل ويتأول الخير سهل المرام ويسلك فيه سبيل الأفاضل الكرام. وإن كان ممن ينظر بحسب الظاهر ولا يسامح في نظر ناظر فالأمر صعب والمرتقى وَعْر.

أما تلمسان فنزل بها الزاهد أبو عبد الله بن عبد الرحمان التجيبي (ت 610هـ-1214م) منذ عام (574هـ-1188م) وأثرى الأدب الصوفي بمؤلفات أبرزها كتاب (الأربعين في الفقر وفضله) وكتاب (الحب لله).

كان يدرسها على الطلبة والمريدين وفي مضمونها دعوات إلى ترغيب النفوس في ترك الدنيا وحب الله والإقبال على التصوف لما فيه من فضائل ومزايا مستعملا في تبليغ هذه الأهداف الروحية أسلوب الوعظ والتذكير على طريقة شيخه الزاهد عبد الحق الأشبيلي (ت 581هـ-1185م)، كما أنتج أبو العيش محمد بن أبي زيد عبد الرحيم الخزرجي في نفس السياق أشعارا دعى فيها إلى القول بوحدة الوجود' ووضع في نفس المضمار كتاب (شرح أسماء الله الحسن) وكذلك دعى عبد الرحمان الفازازي القرطبي أوائل القرن السابع الهجري في أشعاره الزهدية إلى ضرورة التشدد إزاء أهل البدع.

وهناك من الصوفية من اضطرهم طبيعة المناخ الفكري السائد في الأندلس إلى مغادرتها نحو تلمسان ومن هؤلاء أبو إسحاق بن دهاق المعروف بابن المرأة (ت 610هـ-1214م) مؤلف كتاب (شرح أسماء الله الحسنى) وشرح كتاب (محاسن المجالس (لأبي العباس بن العريف (ت 536هـ-1141م,) وصاحب الصوفي أبو عبد الله الشوذي الحلوي توفي أوائل القرن (7هـ-13م) وكلاهما على الطريقة الشوذية في الوحدة المطلقة' بالإضافة إلى أبي علي بن أحمد الحرالي (ت 638هـ-1239م) الذي دخل بجاية ومكث فيها زمنا غير معلوم' وألف خلالها عدة مصنفات منها:(شمس مطالع القلوب وبدر طوالع الغيوب) وكتاب (صلاح العمل لانتظار الأجل) وأذكار لحزبه كان يتلوه عقب صلاة الصبح وأشعار صوفية تجلي اتجاهه على طريقة السهروردي الإشرافية)وكذلك أدى وجود الصوفيين أبو محمد عبد الحق المعروف بابن سبعين (ت 669هـ-1270م) وتلميذه أبو الحسن علي الششتري (ت 668هـ-1269م) في بجاية منذ سنة (624هـ-1227م) إلى انتشار مؤلفاتهما وتواشيحهما وأشعارهما في الوحدة المطلقة بين نخبة من طلبة بجاية' ومن أشهر مؤلفات ابن سبعين (بدء العارف) و(عقيدة المحقق المقرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف) وكتاب (لمحة الحروف) وكتاب (كنز المغرمين في الحروف والأوقاف) ورسائل عبارة عن نصائح صوفية، أما الششتري فقد ألف (المقاليد الوجودية والرسائل القدسية في توحيد العامة والخاصة) و(المراتب الأسمائية) و(ديوان شعر).

خلاصة: وبعد هذا العرض لمرجعيات الأدب الصوفي بالمغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين 12 و13 الميلاديين يتضح أن كل محاولة لفهم نصوص الأدب الصوفي المنظوم والنثري بدون العودة إلى هذه المصادر هي محاولة يائسة لا يمكنها أن تؤدي إلى الوقوف على خصوصيات أدب التصوف بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط. بل أن كل الأدب الصوفي الذي أنجز بعد نهاية القرن السابع الهجري 13الميلادي حتى نهاية القرن التاسع الهجري 15 الميلادي استقى كل خصائصه وأفكاره من هذه المرحلة المتطورة من عمر أدب التصوف بالمغرب الأوسط.